



بسم الله الرحمن الرحيم

إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ نَحْمَدُهُ وَنَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شَرْرِ أَنفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَلَا مُضْلِلٌ لَّهُ، وَمَنْ يُضْلِلُ فَلَا هَادِيٌ لَّهُ، وَأَشْهُدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ وَأَشْهُدُ أَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - تَسْلِيمًا كَثِيرًا.

أما بعد:

أيها المسلمين: لا ريب أن من أعز مقاصد المؤمنين، وأشهى مطالبهم، وغاية نفوسهم: رؤية دينهم ظاهراً، وكتابهم مهيمناً، وعلو رأيَ التوحيد خفاقةً مع قهرِ أهل الكفر والطغيان وإذلالهم.

إنَّ هَذَا الْهَدْفُ الأَعْظَمُ، وَتَلْكَ الْأَمْنِيَّةُ السَّامِيَّةُ، لَا تَتَحَقَّقُ عَنْ طَرِيقِ الدُّعَاوَى وَالْأَمَانِيِّ، بَلْ عَنْ طَرِيقِ الْبَحْثِ وَالتَّنْقِيَّبِ عَنْ سُنْنِ اللَّهِ فِي النَّصْرِ، تَلْكَ السُّنْنُ الرَّبَانِيَّةُ الَّتِي قَدَّرَهَا - تَبَارَكَ وَتَعَالَى - لِنَصْرِ حَزْبِ الْمُوْهَدِينَ، وَخَذْلَانِ حَزْبِ الشَّيْطَانِ الْلَّعِينِ.

فيجب علينا معاشر المؤمنين حتى نحقق صدق الدعوة، ونقيم عليها البينة العادلة، أن نتعرف على تلك السنن وطبيعة الصراع، وحجم التكاليف، وشراسة الأعداء، ومبانة السُّبُل، واختلاف المناهج والغايات والتوجهات بين المؤمنين والكافرين، حتى نقضى على فريدةٍ وحدة الأديان، وتوحيد الرّايات والالقاء في الطريق تحت ستار الأسرة الواحدة والشرعية الدولية.

أيها المؤمنون، إنَّ دِيَنَ اللَّهِ - الَّذِي اصْطَفَاهُ لَنَا وَلَا يَعْبُدُ إِلَّا بِهِ - يَقْتَضِي أَنْ يَكُونَ - جُلُّ شَأنِهِ - حَاكِمًا لَا مُعْقِبَ لِحُكْمِهِ، وَأَنْ يُوَحَّدَ بِالْعِبَادَةِ، وَأَنْ يُفْرَدَ بِالْوَلَاءِ، وَالْبَرَاءَةِ وَالْاِنْخَلَاعِ مِنْ كُلِّ مَا يُعْبُدُ مِنْ دُونِهِ.

ومن هنا وجَب إعداد العدة، والأخذ بالسنن الربانية لتحقيق النصر المأمول، مع الحذر الشديد من العوائق الداخلية، والأمراض الفتاكـة التي تفتـك بجسـد الأمة، وتسليمـها فريـسة سهـلة لأعدـائـها، لتحولـ بينـها وبيـنـ غـايـتها العـظـمىـ، ودورـها المـنشـودـ المنـاطـ بهاـ، بل المـدقـقـ في تلكـ العـوـائقـ الدـاخـلـيةـ، ليـتـيقـنـ أـنـهـ الأـسـاسـ المنـيعـ، الـذـي تـسـتمـدـ مـنـهـ العـوـائقـ الـخـارـجـيةـ وجـودـهاـ

وهيمنتها.

إِنَّ اللَّهَ -عَزَّ وَجَلَّ- بِعْلَمِ الشَّامِلِ وَحُكْمِهِ الْبَالِغَةِ، قَدَرَ وَقَضَى أَنْ يَكُونَ الْصَّرَاعُ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ مُوجَدًا إِلَى أَنْ يَرْثَ اللَّهُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا.

معشر المؤمنين، وأمّا عن طبيعة هذا الصراع: فسمتهُ أَنَّهُ حَرْبٌ ضَرُوسٌ، لِنَ يَخْمَدَ لَهُبُّهَا إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ. قالَ تَعَالَى: ((وَلَا يَرَأُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنْ اسْتَطَاعُوا)) [البقرة: 217]، وَلَا يَخْفَى مَا تَحْوِيهِ لَفْظَة: ((وَلَا يَرَأُونَ)) مِنِ الْاسْتِمْرَارِيَّةِ وَالْبَقَاءِ دُونَ انْقِطَاعٍ، وَلَهَا جَاءَ الْأَمْرُ وَاضْحَى مِنِ الْعَلِيمِ الْحَكِيمِ لِأُولَائِهِ: ((وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةً وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنْ انتَهُوا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ)) [الأنفال: 39]، وَالْفِتْنَةُ لَنْ تَخْلُو مِنْهَا الْأَرْضُ، بَلِ السَّاعَةُ تَقْوَمُ عَلَى شَرِّ أَهْلِهَا.

وَكَذَلِكَ أَخْبَرَ نَبِيُّ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- بِأَنَّ ((الْخَيْلُ مَعْقُودٌ فِي نَوَاصِيْهَا الْخَيْرٌ إِلَيْ يَوْمِ الْقِيَامَةِ)) [1].

هَذِهِ السَّنَةُ الرَّبَانِيَّةُ قَدْ خَصَّ بَهَا حَشْدٌ مِنِ النَّصُوصِ الْمُسْتَفِيَّضَةِ حَتَّى بَلَغَتْ حَدَّ التَّوَاتِرِ الْلُّفْظِيِّ وَالْمَعْنَوِيِّ، وَغَدتْ مِنِ الْمَعْلُومِ بِالاضْطِرَارِ مِنْ هَذَا الدِّينِ، وَأَصْبَحَ الْمُكَذِّبُ بَهَا مُكَذِّبًا بِالدِّينِ، طَاعَنًا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ، مُتَبَعًا غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ.

وَهَذَا مِنْ أَبْلَغِ الْحَجَّ وَالْبَرَاهِينِ عَلَى دَحْضِ افْتَرَاءِ الْعُلَمَانِيِّينَ وَالْمُنَافِقِينَ -الَّذِينَ وَقَفُوا عَلَى طَرِيقِ جَهَنَّمَ، وَأَعْلَوْا رَأْيِهِمْ مُلِوِّهِينَ بِهَا لِلنَّاسِ-, أَنْ هَلَّمُوا إِلَيْنَا لِيَقْنُوْهُمْ فِيهَا، الَّذِينَ يَزْعُمُونَ وَيَفْتَرُونَ بِأَنَّ الْحَرْبَ الْدِينِيَّةَ الْيَوْمَ قَدْ اَنْتَهَتْ، وَحَرَبٌ بِالْعَالَمِ أَجْمَعٌ أَنْ يَجْتَمِعَ تَحْتَ رَأْيِهِ وَاحِدَةً، وَأَنْ يَكُونُوا كَالْجَسَدِ الْوَاحِدِ الْمُتَجَانِسِ الشَّعُورُ وَالْإِحْسَاسُ، وَلَا تَحُولُ مَعْقَدَاتُهُمْ دُونَ هَذَا الْبَيْتَ، بَلْ يَجْبُ أَنْ تَبْقَى هَذِهِ الْمَعْقَدَاتِ حَبِيسَةَ الْقُلُوبِ، وَحَبِيسَةَ دُورِ الْعِبَادَةِ وَالْمُحَارِبَاتِ، وَلَا تَتَعْدَى جَدَارَهَا وَلَا تَتَخْطَى حُدُودَهَا.

وَمِنِ الْمَعْلُومِ أَنَّ الْخَصُومَ فِي حِرْبِهَا تَلْجَأُ إِلَى نَاصِرٍ وَلِيِّ مَعِينٍ، تَحْتَمِي بِحَمَادٍ، وَتَقْهُرُ بِقُوَّتِهِ، وَتَعْتَزُ بِعَزَّهُ، فَاللَّهُ -جَلَّ شَانَهُ- لَمْ يَرْتَضِي لِأُولَائِهِ نَاصِرًا سَوَاهُ وَلَا وَلِيًّا دُونَهُ، وَلَا مَعِينًا عَدَاهُ، قَالَ تَعَالَى: ((اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا)) [البقرة: 257]، وَقَالَ سَبَّاحَهُ: ((ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ)) [محمد: 11].

وَمِنْ هُنَا وَجَبَ عَلَيْنَا مَعْشَرَ الْمُؤْمِنِينَ، وَأَمَّةَ التَّوْحِيدِ أَنْ نَتَوَكَّلَ عَلَى مَوْلَانَا وَنَاصِرُنَا، وَنَعِي آثارَ أَسْمَائِهِ الْحَسَنِيِّ، وَصَفَاتِهِ الْعَلِيِّ، فَنَتَبَعُدُ لَهُ بِهَا، وَتَظَهُرُ فِي الْقُلُوبِ آثارُهَا، فَنَطْمَئِنُ لِوَعْدِ اللَّهِ وَتَنْتُقُ بِنَصْرِهِ، حَتَّى وَلَوْ صَالَ الْبَاطِلُ وَأَنْتَفَشَ فِي وَقْتٍ مِنِ الْأَوْقَاتِ، فَإِنَّ الْمُؤْمِنَ يَوْقِنُ أَنَّ مَا قَدَرَهُ اللَّهُ هُوَ الْخَيْرُ، وَيَحْوِي فِي طَيَّاتِهِ الرَّحْمَةُ وَالنِّعْمَةُ، وَإِنْ كَانَ ظَاهِرُهُ الْأَلَمُ وَالْمَشْكَةُ، ذَلِكَ أَنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ قَدْ سَبَقَتْ غَضْبَهُ، وَأَنَّ الشَّرَّ لَيْسَ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ.

إِنَّ مَعْبُودَ وَوَلِيَ الْمُؤْمِنِينَ هُوَ الْجَبَارُ الْقَوِيُّ: الَّذِي لَا يُعْجِزُ شَيْءًا، الْعَزِيزُ فَلَا يَغْلِبُهُ شَيْءًا، الْمُتَكَبِّرُ الَّذِي تَكَبَّرَ عَنِ السُّوءِ وَالظُّلْمِ، الرَّحْمَنُ الَّذِي هُوَ أَرْحَمُ بَعْبَادِهِ مِنِ الْوَالِدَةِ بَوْلَدِهَا. الْعَلِيمُ فَلَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءًا، وَالسُّرُّ وَالْجَهْرُ عِنْدُهُ سَوَاءٌ، لَا يَعْزُبُ عَنِ عِلْمِهِ مُثْقَلٌ ذَرَّةً فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ، الْحَكِيمُ فِي أَفْعَالِهِ وَقَدْرِهِ وَأَحْكَامِهِ، الْقَدِيرُ: فَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ، وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قِبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، مَا قَدَرَهُ أُولَائِهِ حَقْ قَدْرِهِ فَضْلًا عَنِ أَعْدَاءِهِ. الْمُحيطُ بِظَالِمِ الظَّالِمِينَ وَمَكِيرِ الْمَاكِرِينَ، لَا يَفُوتُهُ شَيْءًا، الْعَلِيُّ قَدْ عَلَا عَلَى كُلِّ شَيْءٍ دُونَهُ وَتَحْتَ قَهْرِهِ وَغَلِيبِهِ.

يَقُولُ ابْنُ الْقِيمِ رَحْمَهُ اللَّهُ: "وَكَذَلِكَ اسْمُهُ السَّلَامُ فَإِنَّهُ الَّذِي سَلَّمَ مِنِ الْعِيُوبِ وَالنَّقَائِصِ، وَوَصَفُهُ بِالسَّلَامِ أَبْلَغُ فِي ذَلِكَ مِنْ وَصَفَهُ بِالسَّالِمِ، وَمِنْ مَوْجَبَاتِ وَصَفَهِ بِذَلِكَ سَلَامًا كُلُّهُ مِنْ ظُلْمِهِ لَهُمْ، فَسَلَّمَ سَبَّاحَهُ مِنْ إِرَادَةِ الظُّلْمِ وَالشَّرِّ، وَمِنْ التَّسْمِيَّةِ بِهِ، وَمِنْ فَعْلِهِ، وَمِنْ نَسْبَتِهِ إِلَيْهِ، فَهُوَ السَّلَامُ مِنْ صَفَاتِ النَّقْصِ وَأَفْعَالِ النَّقْصِ، وَأَسْمَاءِ النَّقْصِ، الْمُسْلِمُ لِخَلْقِهِ مِنِ الظُّلْمِ،

ولهذا وصف سُبحانه ليلة القدر بأنها سلام، والجنة بأنها دار السلام، وتحية أهلها السلام، وأثنى على أوليائه بالقول السلام، كل ذلك السالم من العيوب، وكذلك الكبير من أسمائه.

والمتكبر: قال قتادة وغيره: هو الذي تكبر عن السُّوء، وقال أيضًا: الذي تكبر عن السيئات، وقال مُقاتل: المتعظم عن كل سُوء، وقال أبو إسحاق: الذي يكُبر عن ظلم عباده. وكذلك اسمه العزيز الذي له العزة التامة، ومن تمام عزته براءاته عن كل سُوء وشرٍ وعيوب، فإن ذلك يُنافي العزة التامة.

كذلك اسمه العلي الذي علا عن كل عيبٍ وسوءٍ ونقص، ومن كمال علوه أن لا يكون فوقه شيءٌ، بل يكون فوق كل شيءٍ. وكذلك اسمه الحميد، وهو الذي له الحمد كله، فكمال حمده أن لا يُنسب إليه شرٌ ولا سُوءٌ ولا نقص، لا في أسمائه ولا في أفعاله ولا في صفاته، فأسماؤه الحُسْنى تمنع نسبة الشر والسوء والظلم إليه، مع أنه سُبحانه الحالُ لكل شيءٍ، فهو الخالق للعباد وأفعالهم، وحركاتهم وأقوالهم.

والعبد إذا فعل القبيح المنهي عنه كان قد فعل الشر والسوء، والرب سُبحانه هو الذي جعله فاعلاً لذلك، وهذا الجعل منه عدلٌ وحكمةٌ وصوابٌ، فجعله فاعلاً خيراً، والمفعول شرًّا قبيحاً، فهو سُبحانه بهذا العمل قد وضع الشيء موضعه لما له في ذلك من الحكمة البالغة التي يُحمد عليها، فهو خيرٌ وحكمٌ ومصلحةٌ، وإن كان وقوعه من العبد عيباً ونقصاً وشراً وهذا أمرٌ معقولٌ مشاهدٌ.

ومن أسمائه سُبحانه العدلُ والحكيمُ الذي لا يضع الشيء إلا في موضعه، فهو المحسنُ الجوادُ الحكيمُ، العدلُ في كل ما خلقه وفي كل ما وضعه.

وقد قضى الله سُبحانه وتعالي بأن البقاء للحق؛ لأنَّه الأصلُ الذي قامت عليه السماوات والأرض، وأمَّا الباطلُ فهو طاريٌ وزاهق، قال تعالى: ((وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَرَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا)) [الإسراء: 81]، وقال سُبحانه: ((فَأَمَّا الزَّيْدُ فَيَذَهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَال)) [الرعد: 17].

ولكن حكمة الله عز وجل البالغة اقتضت أن يوجد الباطل لاختبار أوليائه، وإظهار آثار أسمائه الحُسْنى، وصفاته العلاد ولليب المؤمنين منه بلاءً حسناً، وإنما لو شاء الله عز وجل لم يكن هناك كفر ولا باطل، قال تعالى: ((ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَا تَتَّصَرَّ مِنْهُمْ وَلَكِنْ إِلَيْنَا يَعْرَضُوكُمْ بِعَيْنِكُمْ)) [محمد: 4].

يقول الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى: "والرضا بالقضاء الكوني القدر، الجاري على خلاف مراد العبد ومحبته - مما لا يلائمها، ولا يدخل تحت اختياره - مستحب، وهو من مقامات أهل الإيمان، وفي وجوبه قولان، وهذا كالمرض والفقر، وأذى الخلق له، والحر والبرد، والآلام ونحو ذلك".

والرضا بالقدر الجاري عليه باختياره - مما يكرهه الله ويُسخطه، وينهى عنه - كأنواع الظلم والفسق والعصيان، حرام يُعاقب عليه، وهو مخالفة لربه تعالى، فإن الله لا يرضى بذلك ولا يحبه، فكيف تتفق المحبة ورضا ما يُسخطه الحبيب ويبغضه؟ فعليك بهذا التفصيل في مسألة الرضا بالقضاء.

فإن قلت: كيف يريد الله سُبحانه أمراً لا يرضاه ولا يحبه؟ وكيف يشاؤه ويُكونه؟ وكيف تجتمع إرادة الله له وبغضه وكراهيته؟

قيل: هذا السؤال هو الذي افترق الناس لأجله فرقاً، وتبينت عنده طرقهم وأقوالهم.

فأعلم أنَّ "المراد" نوعان: مرادٌ لنفسِهِ، ومرادٌ لغيره.

فالمراد لنفسِهِ: مطلوبٌ محبوبٌ لذاته، ولما فيه من الخير، فهو مرادٌ إرادةً الغاياتِ والمقاصد.

والمراد لغيره: قد لا يكونُ في نفسهِ مقصوداً للمرید، ولا فيهِ مصلحةٌ لهُ بالنظرِ إلى ذاته، وإنْ كانَ وسيلةً إلى مقصودهِ ومرادهِ، فهو مكرورٌ لهُ من حيثُ نفسهِ ذاته، ومرادٌ لهُ من حيثِ إفضائهِ وإيصالهِ إلى مرادهِ، فيجتمعُ فيهِ الأمران: بغضهِ وإرادتهِ، ولا يتنافيان، لا خلافٌ متعلقهما، وهذا كالدواء المتناهي في الكراهيَة، إذا علمَ متناولُهُ أنَّ فيهِ شفاءً، وكقطع العضو المتأكلٍ إذا علمَ أنَّ في قطعِهِ بقاءً جسدهِ، وكقطع المسافةِ الشاقةَ جداً إذا علمَ أنَّها توصلُهُ إلى مرادِهِ ومحبوبهِ، بل العاقلُ يكتفي في إثمارِ هذا المكرورِ وإرادتهِ بالظنِّ الغالبِ، وإنْ خَفِيت عنْهُ عاقبتهِ، وطويت عنْهُ مغبتهِ، فكيفَ بمن لا تخفي عليه العواقبُ؟ فهو سُبحانُهُ وتعالى يكرهُ الشيءَ ويبغضهُ في ذاتهِ، ولا ينافي ذلكُ إرادتهِ لغيرهِ، وكونهِ سبباً إلى ما هو أحبُ إليه من فوتهِ.

مثال ذلك: أنَّهُ سُبحانُهُ خلقَ إبليس، الذي هو مادةٌ لفسادِ الأديانِ والأعمالِ، والاعتقاداتِ والإراداتِ، وهو سببُ شقاوةِ العبيدِ، وعملهم بما يُغضبُ ربُّ تباركَ وتعالى، وهو الساعي في وقوعِ خلافِ ما يحبُّهُ اللهُ ويرضاهُ بكلِ طريقٍ وكلِ حيلةٍ، فهو مبغوضٌ للربِّ سُبحانَهُ وتعالى، مسخوطٌ لهُ، لعنُهُ اللهُ ومقتهُ، وغضبٌ عليهِ، ومعَ هذا فهو وسيلةً إلى محابٍ كثيرةً للربِّ تعالى، ترتب على خلقهِ، وجودها أحبُ إليهِ من عدمها.

* منها: أن تظهرَ للعبادِ قدرةَ الربِّ تعالى على خلقِ المتضاداتِ المتقابلاتِ، وذلك من أدلِ الدلائلِ على كمالِ قدرتهِ وعزتهِ، وسلطانِهِ وملوكيَّةِهِ، فإنَّهُ خلقَ هذهِ المتضاداتِ، وقابلَ بعضها ببعضٍ، وجعلها محالٌ تصرفِهِ وتدبيرِهِ وحكمتهِ، فخلو الوجودِ عن بعضها بالكليةِ تعطيلٌ لحكمتهِ، وكمالٌ تصرفهِ وتدبیرِ مملكتهِ.

* ومنها: ظهورُ آثارِ أسمائهِ القهريَة، مثل (القهر، والمنتقم، والعدلُ، والضارُ، وشديدُ العقابِ، وسريرُ الحسابِ، وذي البطشِ الشديدُ، والخافضُ، والمذلُّ) فإنَّ هذهِ الأسماءُ والأفعالِ كمالٌ. فلا بدُّ من وجودِ متعلقاتِها، ولو كانَ الخلقُ كُلُّهم على طبيعةِ الملك: لم يظهرُ أثرُ هذهِ الأسماءُ والأفعالِ.

* ومنها: ظهورُ آثارِ أسمائِهِ المتضمنةِ لحلمِهِ وعفوِهِ، ومغفرةِ وسترهِ، وتجاوزِهِ عن حقِّهِ، وعتقهِ لمن شاءَ من عبيدهِ، فلولا خلقِ ما يكرهُ من الأسبابِ المفضيةِ إلى شهودِ آثارِ

هذهِ الأسماءِ، لتعطلت هذهِ الحكمُ والفوائدِ، وقد أشارَ النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى هَذَا بِقَوْلِهِ: ((لَوْلَا تَذَنَّبُوا لِذَهَبِ اللَّهِ بِكُمْ، وَلَجَاءَ بِقَوْمٍ يَذْنَبُونَ فَيَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ فَيَغْفِرُ لَهُمْ)) [2].

* ومنها: ظهورُ آثارِ أسماءِ الحكمَةِ والخبرةِ، فإنَّهُ سُبحانَهُ "الحكيمُ الخبيرُ" الذي يضعُ الأشياءَ مواضعها، وينزلها منازلها اللائقةُ بها، فلا يضعُ الشيءَ في غيرِ موضعهِ، ولا ينزلهُ غيرَ منزلتهِ، التي يقتضيها كمالُ علمِهِ وحكمتهِ وخبرتهِ، فلا يضعُ الحرمانُ والمنعُ موضعَ العطاءِ والفضلِ، ولا الفضلُ والعطاءُ موضعَ الحرمانِ والمنعِ، ولا الثوابُ موضعَ العقابِ، ولا العقابُ موضعَ الثوابِ، ولا الخفْضُ موضعَ الرفعِ، ولا الرفعُ موضعَ الخفْضِ، ولا العزُّ مكانَ الذلِّ، ولا الذلُّ مكانَ العزِّ، ولا يأمرُ بما ينفي النهيُ عنْهِ، ولا ينهى عمَّا ينفي الأمرُ بهِ.

فهو أعلمُ حيثُ يجعلُ رسالتهِ، وأعلمُ من يصلاحُ لقبولها، ويشكرُ على انتهائِها إلَيْهِ ووصولها، وأعلمُ من لا يصلحُ لذلك ويستألهُ، وأحكُمُ من أَنْ يمنعها أهلها، وأنْ يضعها عندَ غيرِ أهلها.

فلو قدر عدم الأسباب المكرورة البغيضة له لتعطلت هذه الآثار، ولم تظهر لخلقها، ولفاتت الحكم والمصالح المترتبة عليها، وفواتها شرٌ من حصول تلك الأسباب.

فلو عطلت تلك الأسباب - لما فيها من الشر - لتعطل الخير الذي هو أعظم من الشر الذي في تلك الأسباب، وهذا كالشمس والمطر والرياح التي فيها من المصالح ما هو أضعاف أضعاف ما يحصل بها من الشر والضرر، فلو قدر تعطيلها - لئلاً يحصل منها ذلك الشر الجزئي - لتعطل من الخير ما هو أعظم من ذلك الشر بما لا نسبة بينه وبينه.

* ومنها: حصول العبودية المتنوعة التي لولا خلق إبليس لما حصلت، ولكن الحاصل بعضها لا كلها، فإنَّ عبودية الجهاد من أحب أنواع العبودية إلى سبحانه، ولو كان الناس كلهم مؤمنين لتعطلت هذه العبودية وتوا بها: من الموالاة فيه سبحانه، والمعاداة فيه، والحب فيه والبغض فيه، وبذل النفس له في محاربة عدوه، وعبودية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وعبودية الصبر، ومخالفة الهوى، وإثارة محابِّ الرب على محابِّ النفس.

* ومنها: عبودية التوبة، والرجوع إليه واستغفاره، فإنَّ سُبحانه يُحب التوابين ويُحب توبتهم، فلو عطلت الأسباب التي يatab منها لتعطلت عبودية التوبة والاستغفار منها.

* ومنها: عبودية مخالفة عدوه، ومرا غمته في الله، وإنما غمته في الله، وهي من أحب أنواع العبودية إليه، فإنَّ سُبحانه يُحب من وليه أن يغيب عدوه ويراغمه ويسوءه، وهذه عبودية لا يتقطن لها إلا الأكياس.

* ومنها: أن يتبعَ له بالاستعاذه من عدوه، وسؤاله أن يجيره منه، ويعصمه من كيده وأذاه.

* ومنها: أن عبيده يشتَّد خوفهم وحذرهم إذا رأوا ما حلَّ بعدوه

بمخالفته وسقوطه من المرتبة الملكية، إلى المرتبة الشيطانية، فلا يخلدون إلى غرور الأمْل بعد ذلك.

* ومنها: أنَّهم ينالون ثواب مخالفته ومعاداته، الذي حصوله مشروط بالمعاداة والمخالفة، فأكثر عبادات القلوب والجوارح مرتبة على مخالفته.

* ومنها: أنَّ نفس اتخاذه عدواً من أكبر أنواع العبودية وأجلها. قال الله تعالى: ((إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا)) [فاطر:6]، فاتخاذه عدواً أنفع شيء للعبد، وهو محظوظ للرب.

الخطبة الثانية:

إنَّ الحمد لله نحمدُه ونستعينُه ونستغفرُه، ونوعُ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهدِ الله فلا مضل له، ومن يُضل فلا هادي له، وأشهدُ أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهدُ أنَّ محمداً عبده ورسوله - صلَّى الله عليه وسلم - تسلِّيماً كثيراً.

* أيُّها الأحبة: إنَّ الطبيعة البشرية مشتملة على الخير والشر، والطيب والخبيث، وذلك كامنٌ فيها كمون النار في الزناد، فخلقَ الشيطان مستخرجاً لما في طبائع أهل الشر من القوة إلى الفعل، وأرسلت الرسلُ تستخرجُ ما في طبيعة أهل الخير من القوة إلى الفعل، فاستخرجَ حكمُ الحاكمين ما في قوى هؤلاء من الخير الكامن فيها، ليترتبَ عليه آثاره، وما في قوى أولئك من الشر، ليترتبَ عليه آثاره، وتظهرَ حكمتُه في الفريقين، ويُنفي حكمُ فيما، ويُظهرُ ما كان معلوماً له مطابقاً لعلمه السابق.

إنَّ المتأملَاليوم في عصرنا الحاضر وما فيه من الصراعات، يجدُ أنَّ الصراعَ بين الحق والباطل قد بلغَ أشدَّه، وأنَّ مللَ

الكفر قد جمعت كل إمكانياتها ضدّ عدوٍ واحدٍ، ألا وهو الإسلامُ ودعاته الصادقون الذين يصفونهم تارةً بالمتطرفين، وتارةً بالأصوليين، وتارةً بالإرهابيين.

وإنَّ المراقبَ للأحداثِ التي ظهرت في السنواتِ الأخيرة، وبالذات بعد أحداثِ الخليجِ، ونشوءِ ما يُسمى النظامُ العالمي الجديدُ النظامُ العالميُّ الجديدُ: هذا المصطلحُ الذي يحملُ في طياتِه الكثيرَ من الخبرِ والمكرِ للإسلامِ وال المسلمينِ – قد اصطلاحُ عليه أئمَّةُ الكفرِ من اليهودِ والنصارى والشيوعيين، لزيادةِ النكارةِ بال المسلمينِ، والعملِ الدعوبِ لمنعِ ظهورِ الإسلامِ مسيطراً ومهيمناً لأداءِ دورِه المنشودِ. ومضمونُ هذا المصطلح: أن يكونَ العالمُ بأسرِه – على اختلافِ مللهِ – تحتَ رأيِ واحدةٍ يوالى ويعادي من أجلها، وتلك الرأيَ بكلِّ وضوحٍ هي رأيُ الصليبِ تحتَ ستارِ الأممِ المتحدةِ – التي لم تتحدْ إلَّا على ضربِ الإسلامِ وتمزيقِ أهلهِ، وإعلاءِ رأيِ الكفرِ والطغيانِ – والقائمون على رأسِ هذا النظامِ من اليهودِ والنصارى والمشركيين، لهم حُقُّ الحكمِ والقراراتِ والفصلِ في شتَّى المنازعاتِ والخصوماتِ بين كافَّةِ الدولِ والمللِ والمجتمعاتِ، دونَ حُقُّ التعقيبِ عليها من أحدٍ، بل على العالمِ أجمعِ الانصياعِ التامِ والعبوديةِ الكاملةِ، والطاعةِ المطلقةِ لتلك الطائفةِ الحاكمةِ.

وأمَّا عن حُكمِ هذا النظامِ الخبيثِ: فمن المعلومِ بالاضطرارِ من الدينِ: أنَّ كُلَّ مَا عَبَدَ من دونِ اللهِ فهو طاغوتٌ، وهذا الحُدُّ متوفَّ في هذا النظامِ الخبيثِ، لاستباحتهِ حقَّ التشريعِ، وسنِ القوانينِ والحكمِ بما شاءَ من غيرِ تقييدٍ أو امتحالٍ لحدودِ اللهِ سُبْحانَهُ، التي حدَّها في كتابِه وسنةَ رسولِه، وهذا هو لبُّ العبادةِ وأصلُها، والدليلُ على ذلك: حديثُ عدي بنِ حاتمَ – رضيَ اللهُ عنه – عندما أقسمَ باللهِ للنبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلمَ أنَّهم – أيُّ أهلُ الكتابِ – ما وقعوا في عبادةِ الأخبارِ والرهبانِ، فاحتاجَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلمَ بوجُودِ أصلِ العبادةِ ولبِّها، فقالَ: ((أَلَمْ يُحلُوا لَكُمُ الْحَرَامُ، وَيُحرِّمُوا عَلَيْكُمُ الْحَلَالَ فَاتَّبِعُوهُمْ)) قالَ: بلى. قالَ: ((فَتَلَكُ عِبادَتَكُمْ إِيَاهُمْ)) . وقالَ القرآنُ في حقِّهم: ((اَتَأْخُذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّنْ دُونِ اللَّهِ)) [التوبه: 31].

فتلك الأمةُ عندما أنزلتُ أحبَارَها ورَهباً منها منزلةَ ربِّها في التحليلِ والتحريرِ والتشريعِ من دونِهِ، خرجت بذلك عن عبادةِ ربِّها إلى عبادةِ الأخبارِ والرهبانِ، فكيفَ بمن يتخدُّ أحبَارَ ورهباً، وأئمَّةَ الكفرِ لملأِ لا يدينُ بها أرباباً من دونِ اللهِ؟!!

أمَّا عن كيفيةِ الكفرِ والبراءةِ من هذا الطاغوتِ: فيجبُ على كُلِّ مسلمٍ أن يعلنَ الكفرُ والبراءةُ من هذا الطاغوتِ، والانخلالُ من طاعتهِ في شريعتِهِ امتحالاً لقولِهِ تعالى: ((فَمَنْ يَكْفُرُ بِالظَّاغُوتِ وَيُؤْمِنُ بِاللَّهِ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْأُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا يُنْفِسَنَّ لَهَا)) [البقرة: 256] ولا يكفيُ هذا حتى يُعادِي عُبادَ هذا الطاغوتِ، ويُظهِّرَ لهم العداوةُ والبغضاءُ أبداً حتى يكفروا به ويُؤْمِنوا باللهِ وحدهِ، قالَ تعالى: ((قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَاءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَنَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبْدَى حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلُ إِبْرَاهِيمَ لِأَيِّهِ لَا سُنْغَرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلَكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنْبَنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ)) [المتحنة: 4].

تنسمُ بسمَتَينِ رئيسيَّتينِ هما:

١- التسارعُ الشديدُ والمفاجآتُ التي تصاحبها، إلى حدِّ أنَّ المتابعَ لهذهِ الأحداثِ لا يفتَأِ يسمعُ بحدِّهِ ويبحثُ عن الموقفِ منهِ إلاًّ وتفاجئُهُ أحداثٌ أخرى تنسيهِ أو تُشغلُهُ عن الحدثِ الأولِ.

٢- إنَّ أغلبَ هذهِ الأحداثِ – إنْ لمْ نُقلْ كُلَّها – تقعُ في المنطقةِ الإسلاميةِ، وأنَّ المسلمينَ فيها هُم المستهدفوُن بالدرجةِ الأولى.

إنَّ هذَا الصِّرَاعُ الَّذِي نَعِيشُهُ فِي الْأَوْنَةِ الْآخِيرَةِ قَدْ رَجَحَتْ فِيهِ قُوَّةُ الْكُفَّارِ وَالْكَافِرِينَ - لِحُكْمِهِ يَعْلَمُهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ، كَمَا سَبَقَ أَنْ بَيَّنَا - فَاسْتَبَاحُوا بِذَلِكَ دِيَارَ الْمُسْلِمِينَ وَدِمَاءَهُمْ وَأَعْرَاضَهُمْ، وَبَلَغَ الْمُسْلِمُونَ مِنَ الذُّلَّةِ وَالْمَهَانَةِ وَاسْتَخْفَافِ أَعْدَائِهِمْ بِهِمْ مَا لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ.

وَفِي ظُلُّ هَذِهِ الْحَمْلَةِ الشَّرِسَةِ عَلَى دِيَارِ الْمُسْلِمِينَ وَدِينِهِمْ وَأَعْرَاضِهِمْ صَارَ الْكَثِيرُ مِنَ الدُّعَاءِ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ يَتْسَاءَلُونَ مَعَ بَعْضِهِمْ أَوْ مَعَ أَنفُسِهِمْ.

أَمَا آنَّ لِهَذِهِ الْمَهَانَةِ أَنْ تَنْقَشِعَ؟ مَتَى يَنْجُلِي هَذَا الْلَّيلُ الطَّوِيلُ، الَّذِي نَاءَ تَحْتَ كُلَّ كَلْكَلٍ كُلَّ مُسْلِمٍ غَيْرِهِ، يُهْمِمُهُ أَمْرُ هَذَا الدِّينِ؟ مَتَى يَبْرُزُ فَجَرُّ الْإِسْلَامِ؟ وَبِشَكْلٍ عَامٍ ظَهَرَ سُؤَالٌ كَبِيرٌ، أَلَا وَهُوَ ذَاكَ السُّؤُالُ الَّذِي سَأَلَ الرَّسُولُ لِلَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ، بَعْدَمَا أَصَابَتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَاءُ وَزُلْزَلُوا فَقَالُوا: مَتَى نَصْرُ اللَّهِ؟

فَاللهُ تَعَالَى يَحْكِي هَذِهِ الْحَالَةَ: ((أَمْ حَسِبُوكُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَكَلُّ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسْتَهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَاءُ وَزُلْزَلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ)) [البقرة: 214].

لَأَنَّ الْمَوْعِدَ قَرِيبٌ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ((أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ)), وَلَكِنَّ الْمُهُمُّ هُوَ الطَّرِيقُ الْمُؤْدِي إِلَيْهِ.

أَسْأَلُهُ سُبْحَانَهُ أَنْ يُلْهِمَنَا رُشْدَنَا وَأَنْ يَرْزَقَنَا السَّدَادَ فِي القَوْلِ وَالْعَمَلِ.

[1] أَخْرَجَهُ البَخَارِيُّ فِي الْجَهَادِ (2850)، وَفِي الْمَنَاقِبِ (3644).

[2] رَوَاهُ أَحْمَدُ بْنُ حُوَيْهِ (1/289)، وَلَهُ شَوَّاهِدُ فِي السَّلِسَلَةِ الصَّحِيفَةِ (970).